دور الجغرافيا في المعارك الحربية *

للدكتور طه عثمان الفرا

تمهيد :

بدأت الجغرافيا كنوع من المعرفة لازم وجود الانسان منذ أن ظهر على سطح هذا الكوكب . ولذا يمكن القول بأن الجغرافيا هي أقدم أنواع المعرفة الانسانية . ولقد كانت المعرفة الجغرافية وسيلة أمن وحماية للانسان القديم . اذ أنه ما كان ليستطيع العودة الى كهفه الذي يحميه من الوحوش اذا لم يعرف الطريق . وما كان ليعرف الطريق اذا لم يتخذ من الظاهرات الجغرافية الموجودة في بيئته علامات يهتدي بها . لقد اهتدى الانسان الأول بالمكان الذي تشرق منه الشمس . واسترشد بالجبال والتلال والأنهار في حله وترحاله .

ومع مرور الزمن تزايدت المعرفة الجغرافية وأصبحت لها قوانينها وصارت علما . وتفرع عن علم الجغرافيا فروع عديدة أحدثها « الجغرافيا التطبيقية » التي ظهرت كفرع مستقل في المؤتمر الجغرافي الدولي التاسع عشر الذي عقد في ستوكهولم سنة ١٩٦٠ ، والمؤتمر الجغرافي الدولي العشرين الذي عقد في لندن سنة ١٩٦٤م والذي وضح فيه تماماً انسلاخ الجغرافيا التطبيقية التي أخذت تثبت جدواها في كثير من الميادين . ومن هذه الميادين الجغرافيا العسكرية .

الجغرافيا والحرب :

العلاقة بين الجغرافيا والحروب وثيقة . فالدول التي تشن الحروب تهدف الى تحقيق أمور كثيرة منها زيادة رقعتها الجغرافية ، والدول المعتدى عليها تهدف الى الحفاظ على رقعتها الجغرافية وبقاء حدودها السياسية . والحدود السياسية هي جبهات التوازن التي تحدد نطاق سيادة الدول . وتظل هذه الحدود باقية دون زحزحة ما بقيت عوامل التوازن ، سواء أكانت عوامل ذاتية محلية . أو عوامل خارجية تفرضها قوى أكبر من واقع مصالحها . وتقوم الحروب أحياناً بسبب تجاهل شعب أو قادته لأهداف وأماني شعب آخر . وهذا بالطبع يؤدي الى مناوشات قد تشتد وتتحول الى معارك طاحنة . ويقول — James Miller » بهذا الخصوص ما يلي :

" Ignorance of the desires, aims, and characteristics of other peoples leads to fear and is consequently one of the primary causes of aggression." (1)

ولما كانت المعارك عبارة عن التقاء قوتين بشريتين على مسرح أما يكون رقعة من الأرض ، أو مسطحاً مائياً . أو قد تكون في الجو . فان كاتب هذا المقال سوف يتناول عناصر هذا الموضوع على النحو التالي :

---

* يشكر الباحث كلا من الدكتور عبدالله الناصر الوهيبي ، واللواء شحات محمد بصري والدكتور حسن عبد القادر صالح ، والاستاذ محمد محمود محمدين ، على ما تفضلوا به من نقاش أسهم في اخراج هذا المقال بهذه الصورة .

Kenneth N, Waltz, Man, the State and War, (New York and London: Colombia University Press), 1970, P. 48.

أولا : العوامل البشرية .
ثانياً : العوامل الطبيعية .

العوامل البشريـــة

يعتبر الانسان أهم ثروة وأعظم مخلوق على سطح كوكب الأرض . وبدونه لا يمكن استغلال أية ثروة طبيعية أخرى . ان البترول والفحم الحجري والثروات الزراعية والمعدنية المختلفة لا قيمة لها بدون استغلال الانسان لها . لقد وجدت مختلف الثروات الطبيعية على سطح الأرض أو في باطنها منذ أمد بعيد دون أن يلتفت اليها أحد . وعندما بدأ الانسان في استغلال بعضها زادت قيمتها بينما بقيت الثروات الأخرى عديمة الفائدة بل ان بعضها كان خطراً على الانسان . وعلى سبيل المثال فان الغاز الطبيعي الذي كان ينبثق من الشقوق والصدوع تسبب في موت أعداد كبيرة من الانسان والحيوان بالاختناق . كما أن الزيت الذي كان ينساب من قيعان المسطحات المائية مثل بحيرة مراكيبو في شمال فنزويلا كان يفسد على صيادي الأسماك الهنود شباكهم . ولكن عندما عرف الانسان كيف يستغل تلك الثروات صارت نقمة الأمس نعمة اليوم .

وقدرة الانسان على الاستفادة من ثروات بلاده الطبيعية وحمايتها ضد كل من تسول له نفسه باغتصاب تلك الثروات تعتمد على أمور أهمها :

١ ـ عدد السكان :

لم يعر الانسان في العصور البدائية مصالح أخيه الانسان أي اهتمام . حيث كان قانون الحياة في عرف البشر قديماً « البقاء للأصلح ـ Survival of the fittest » وكان الانسان ينظر الى الآخرين على أنهم أعداء ينافسونه في الحصول على عناصر حياته من مأكل ومشرب وغنائم . كانت تقوم بينهم المعارك الطاحنة التي قضت على الكثير من بني آدم آنذاك . وسرعان ما قامت الأسر وتكونت القبائل . وما لبث الانسان أن آثر العيش في جماعات ونشأت القبائل المتعددة وكانت الغلبة في الحروب في معظم الحالات للقبائل المتضامنة المتحدة الكبيرة العدة والعدد . وكثيرا ما كانت تنشأ تحالفات وارتباطات بين قبيلتين أو أكثر أدت الى توسيع دائرة نفوذ هذه القبائل لتضرب ذات اليمين وذات الشمال بقوة وبطش وتنشر الرعب والدمار في العالم . ومن أمثلة هذه القبائل الهكسوس الذين غزو مصر في العصور القديمة . والهون الذين اجتاحوا وسط آسيا وساروا غرباً ليسيطروا على أجزاء كبيرة من أوربا . وكذلك التتار الذين نشروا الذعر والخراب في أنحاء الشرق الأوسط لمدة اثنتين وأربعين سنة لم يهزموا فيه قط ولم يردوا الى الوراء خطوة واحدة حتى تمكن العرب من هزيمتهم سنة ١٢٦٠م في موقعة عين جالوت وبذلك قضوا على أسطورة « المغول قوم لا يهزمون » (١) .

ومن البديهي أن القبائل والأقوام والدول التي تمتعت بعدد سكاني كبير في الماضي كانت لها الغلبة في الحروب . إذ أن عدد سكان أي قطر يعطيه فرصة لتكوين جيوش نظامية كبيرة كما أن نسبة الاحتياطي

---

(١) عبد العزيز بن عبدالله الحويطر ، الملك الظاهر بيبرس ، (الرياض : دار الكتاب الجامعي) ، ١٩٧٦م ، ص ٢٤ .

تكون عالية كذلك . ان دولة مثل مصر يمكنها أن تصمد في معركة طويلة الأمد لأن بامكانها تغذية ميدان المعركة بالرجال . بينما دولة مثل اسرائيل لا يمكنها ذلك . ولذلك فانها تخطط لحروب خاطفة تعتمد على المباغتة والخداع .

ان كثرة عدد السكان في أي بلد يمثل حاجزاً بشرياً يعوق تقدم الجيوش المتقدمة . وهذا ما ترمي اليه اسرائيل في وقتنا الحاضر بانشائها المستوطنات المختلفة في صحراء النقب وأجزاء كبيرة من الأراضي المحتلة .

٢ ـ القانون :

وضعت القبائل قوانين لها تعارفت عليها لتنظيم حياة أفرادها . أثبتت بعض تلك القوانين جدارتها واحترامها وعاشت أمداً طويلاً . وجاءت الأديان السماوية لتؤيد هذه العادات والقوانين الداعية الى الخير وتضيف اليها المزيد ولتقضي على غير المناسب منها . ثم جاءت الدول والتنظيمات السياسية المختلفة ووضعت القوانين والشرائع . ومن الدول العظيمة التي عرفها العالم دولتا الرومان والفرس .

وأخيراً جاءت دولة الاسلام التي اهتدت بهدي قانون سماوي أشاع السعادة بين أبنائها ومكنهم من السيطرة على مساحات كبيرة من سطح هذه الكواكب .

٣ ـ العقيدة :

لم تكن الكثرة في العدة والعدد للجيوش هي العامل الحاسم في تحقيق النصر بل كان ايمان أفراد الجيش بالهدف الذي يقاتلون من أجله كنشر دعوة أو الذود عن حمى الوطن أو الموت في سبيل الله ذا أثر كبير في تحديد مصير المعارك . وكم من فئة قليلة مؤمنة بمبادئها غلبت فئة كبيرة باذن الله .

ولقد تمتع الجندي في الجيش الاسلامي باحترام شديد من قبل قواده المباشرين وغير المباشرين وذلك نظراً للمهام الجسام التي كانت ملقاة على عاتقه في نشر رسالة الاسلام بالاضافة الى قلة عدد الجنود المسلمين وضخامة أعداد جيوش أعدائهم . لذا فاننا نجد أن القادة على مختلف مستوياتهم قد حرصوا على حماية الجندي المسلم وصنعوا ما في وسعهم لحمايته . وها هو ذا ابن الخطاب يضرب لنا أمثلة رائعة باهتمامه بجند المسلمين في العديد من رسائله لأبي عبيدة عامر بن الجراح حيث يقول :

لا تقدم المسلمين الى هلكة رجاء غنيمة . . . . ولا تبعث سرية إلا في كثف من الناس .

وها هو رضي الله عنه يقول لأبي موسى الأشعري في بعض خطاباته بهذا الشأن عندما ولاّه البصرة بالعراق .

* عد مرضى المسلمين . واشهد جنائزهم . افتح بابك لهم وباشر أمرهم بنفسك .
* لا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده ، ولا تتجسس عليهم فتفضحهم . ولا تكشف الناس على أسرارهم . واكتف منهم بعلانيتهم .

ويستغل بعض القادة عقيدة الشعوب نحو تحقيق أهدافهم وعلى سبيل المثال نذكر ما لجأ اليه نابليون حين قدم الى مصر سنة ١٧٩٨م ، لقد درس هذا القائد نفسية الشعب المصري ، وعلم أن ذلك الشعب شديد التمسك بدينه الاسلامي . لذلك فانه تظاهر بالاسلام لكي يخدع المصريين ويألبهم ضد المماليك ، ويأمن جانبهم . ووزع منشوراً بهذا الخصوص في مصر نقتبس جزءاً منه :

« . . . يا أيها المصريون قد قيل لكم انني ما نزلت بهذا الطرف (يعني مصر) إلا بقصد ازالة دينكم فذلك كذب صريح فلا تصدقوه . وقولوا للمغترين انني ما قدمت اليكم الا لأخلص حقكم من يد الظالمين . وانني أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى وأحترم نبيه والقرآن العظيم . . . أيها المشايخ والقضاة والأئمة . . . وأعيان البلد وقولوا لأمتكم أن الفرنساوية هم أيضاً مسلمون مخلصون » (١) .

وكان نابليون يشارك احتفالات المصريين بذكرى مولد النبي عليه السلام . ولقد اعتمدت جيوش كثيرة في انتزاع النصر من أعدائها بفضل التأكيد على قدسية الأهداف التي يحاربون من أجلها . ومما يذكر عن مونتغمري أنه عزى انتصارات جيوشه في الصحراء الافريقية وفي غيرها من الميادين بالدرجة الأولى الى الوازع الديني الذي أذكاه في نفوس جنده وقواده . وهذا أمر ليس بغريب اذا ما عرفنا أن أعداداً كبيرة من الهنود المسلمين وغيرهم كانوا يحاربون في صفوف الحلفاء في الحرب العالمية الثانية . ولقد حرص البريطانيون على الاستعانة ببعض القادة ورجالات الاسلام للايعاز للمحاربين من المسلمين بأن قتالهم يعتبر في سبيل الله وأنهم اذا ما قتلوا فهم في عداد الشهداء .

وفي هذه الأيام لم يعد النصر مرتبطاً بكثرة تعداد الجيوش بقدر ما هو مرتبط بأمور أخرى من أهمها ما يلي :

١ ــ درجة التعليم والوعي الديني عند حماة الديار .

٢ ــ سلامة أجسام رجال الجيش .

٣ ــ مقدرة الجندي على استغلال الخامات الموجودة بميدان المعركة .

٤ ــ مقدرة القادة على جمع المعلومات عن أعدائهم .

٥ ــ نوعية الأسلحة والمهارة الكافية في استعمالها .

وسوف نناقش بعضاً من هذه الأمور ونعالجها باختصار كما يلي :

١ ــ درجة التعليم والوعي الديني عند حماة الديار :

بالرغم من تقدم أساليب الحرب والأبتكارات الحديثة في دنيا السلاح الا ان الجندي في اي قطاع من قطاعات الجيش سيبقى سيد الميدان . والجندي المتعلم المثقف ، اذا ما كان متعادلا مع خصمه في كل الأمور ، عدا العلم والثقافة فان الغلبة والنصر تكون في صف المتعلم المثقف الذي يعرف امور دينه ودنياه .

---

(١) محمد جلال كشك ، . . ودخلت الخيل الأزهر ، (بيروت : الدار العلمية) ، (١٩٧٢ ، ص ١٤٦ ــ ١٤٧ .

ان الجندي المتعلم المتدين يقدر قيمة سلاحه الذي في يده ويحافظ عليه ويستعمله في الوقت المناسب وكم من مقاتلين لم يقدروا قيمة سلاحهم وتخلصوا منه عندما واجهوا الخصم وتستروا بملابس مدنية وقدر لهم ان يقعوا في ايدي أعدائهم ليعذبوا وليقتلوا . وكم من مقاتلين حصلوا على نسبة لا بأس من التعليم والثقافة أبلوا بلاء حسناً في الحرب وكان نصيبهم الشهادة أو الحياة الحرة الكريمة المشرفة .

ان هذا الضرب من رجال الجيش يقدر المسئولية الملقاة على عاتقه للذود عن حماه ووطنه وعرضه يقاتل ببسالة وايمان وصبر حتى النصر . ان معرفة الجندي لسير وعبر وأقوال القادة والعظماء والمجربين خير ثقافة وعلم يجب ان يعرفها كل جندي من أجل أن يأخذ طريقه الى النصر .

وعندما نستشير التاريخ نجده غاصاً بمآثر وأقوال هؤلاء القادة . وعلى سبيل المثال نجد أن رجلا مثل ابن سعود الذي تمكن من بناء صرح المملكة العربية السعودية يقول مرة لجماعة من جنوده ما معناه :

« ان الصبر في الحرب هو طريق النصر . واعلموا انكم وخصمكم في المعركة أشبه برجلين كل بعض يد خصمه لا بد لأحدهما ان يكل ويستسلم بينما يصبر الآخر ويغتنم . فكونوا من الصابرين ترشدوا وتنصروا ان شاء الله . » (١)

٣ ــ سلامة الجسم :

لقد قيل بأن العقل السليم في الجسم السليم . وأجسامنا امانة في اعناقنا يمكننا أن نساهم في بنائها وتقويتها اذا ما راعينا الأمور الآتية :

أ ــ التغذية الكافية المناسبة .

ب ــ التمرينات والمناورات المتواصلة .

ج ــ شغل أوقات الفراغ بما ينفع .

الغذاء الصحي المتكامل ضروري للجسم لأنه يزود الأنسان بالطاقة اللازمة للقيام بالأعمال المختلفة كما انه يساعد على نمو الجسم وبناء الأنسجة التالفة . بالأضافة الى ذلك فان الغذاء الجيد يكسب المرء مناعة كافية ضد بعض الأمراض . وقوة عضلات الجندي أمر هام وهي لا زمة في كل الأمور . وتبرز اهميتها عندما تتقابل الجيوش وجهاً لوجه وتسكت الأسلحة الحديثة ويرجع الجنود الى استعمال السلاح الأبيض .

والتمرينات والمناورات للجيش أمر هام أيضاً لأنها تقوي الجسم وتساهم في زيادة رصيد الخبرة والمعرفة عند الجيش . بالطبع ان التمرينات الشاقة والمناورات المتواصلة أشياء مضنية بالنسبة للجنود وقوادهم ولكن يجب أن نتذكر بأن قطرات عرق التدريب في السلم توفر قطرات الدم في الحرب . ويمكن أن يستفاد من أوقات فراغ الجنود في التدريبات الرياضية والمطالعات والمحاضرات والندوات العلمية العسكرية التي تعمل على اتساع مدارك الجنود .

---

(١) عبدالله ناصر الوهيبي ، مقابلة شخصية جرت في الرياض بتاريخ ٧ مارس سنة ١٩٧٧م.

ولقد كان القادة والجنود المسلمين يتمتعون بعقول راجحة وأجسام قوية وايمان جم . ولذلك كانت كانت طرق النصر مفتوحة أمامهم . ولقد انعكست صفاتهم الجسيمة والعقلية فيما يأتي : (١) .

أ ــ الصدق في القول والتصميم على تحقيق الهدف .

ب ــ الشجاعة في الحرب .

ج ــ إبادة قادة خصومهم منذ اللحظات الأولى للقتال .

د ــ قتل الأسرى الذين كانوا يقتلون وينكلون بالمسلمين والقائهم في مواجهة العدو .

هـ ــ المطاردة الحاسمة في القتال .

و ــ مطاردة الخصوم وأعداء المسلمين حيثما ذهبوا .

ولا شك أن مثل هذه الخطوات لا يمكن أن يقوم بها إلا اناس أعطوا بسطة في الأجسام والعقول .

٣ ــ مقدرة الجندي على استغلال الخامات الموجودة في ميدان المعركة :

عندما دخلت الولايات المتحدة الأمريكية الحرب في فيتنام في بداية الستينيات ظنت بأن قواتها الكثيرة العدة والعدد ستخضع الفيتناميين في مدة وجيزة ولكن شيئاً مثل ذلك لم يحدث . ولقد استعمل الجيش الأمريكي أسلحته الجبارة ومعظم ما في جعبة قواده من خطط ومهارات عسكرية ولكن الحظ في النصر لم يحالفهم . هناك أسباب كثيرة حالت بين الامريكان وبين النصر ولا مجال لمناقشتها في هذا المكان . ولكننا نذكر ما يهمنا فقط منها وخاصة ماله علاقة بموضوع هذا المقال . لقد ارتكزت استراتيجية الامريكان على تحطيم مقاومة الفيتناميين . بغض النظر عما اذا كان ذلك يعني ابادتهم واهلاك حرثهم ونسلهم . في حين أن استراتيجية الفيتناميين ركزت على أبعاد أكبر عدد ممكن من المقاتلين الامريكان عن ميدان المعركة . اما بواسطة اصابتهم اصابات مباشرة أو على الأقل ذهابهم الى المستشفيات بقصد العلاج لأكبر مدة ممكنة . استغل الفيتناميين الكثير من الخامات الموجودة لديهم فصنعوا مسلات رفيعة من البوص أو الأسلاك وعمدوا الى تدبيب رؤوسها وغرسوها في الممرات الضيقة التي كان يمر فيها الجنود الامريكان . ولقد وضعوا مواد عفنة على تلك الرؤوس المدببة لكي تخترق أحذية المطاط وأقدام الجنود فيصابوا بالتسمم ويرسلوا للمستشفيات للعلاج . ولقد أمد الامريكان الفيتناميين بطريقة غير مباشرة بالأسلاك التي استعملوها في عمل مسلاتهم الفتاكة وذلك من أسلاكهم الشائكة التي كانت تنتشر في في كل مكان أو من الأسلاك التي كانت تربط بها صناديق ذخائرهم وتموياتهم لقد استغل المحاربون الفيتناميون الكثير من نفايات الامريكان كعلب الصفيح والزجاجات الفارغة والحبال والأسلاك وأشرطة الفولاذ وغيرها في استعمالاتهم المدنية والعسكرية . وهذا المثال البسيط وغيره من الأمثلة الكثيرة الأخرى يؤكد لنا مدى أهمية معرفة الجندي لاستغلال الثروات الطبيعية والخامات البيئية المختلفة وتسخيرها من أجل النصر .

---

(١) بسام العسلي ، فن الحرب في عهود الخلفاء الراشدين والأمويين ، عمليات الجبهات الشمالية والشرقية والبحرية ، (بيروت : دار الفكر) ، ١٩٧٤م ، ص. ٣٥ ــ ٣٧ .

ثانياً : العوامل الطبيعة

وتتمثل هذه العوامل في عدة مظاهر أهمها الموقع ومظاهر السطح والمناخ ومدى أهميتها للمحاربين وكيفية وامكانية استغلالها من أجل الحصول على النصر بأقصر الطرق وأقل التكاليف من حيث الأرواح والأموال .

لما كانت المعارك الحربية ترتبط بأماكن معينة هي مسارح تلك المعارك والعمليات العسكرية فان الاستفادة من خصائص هذه المسارح الجغرافية تتيح لقادة الجند ادارة المعارك بنجاح . ويمكن القول أن الجيش الذي يحسن الاستفادة من الظروف الجغرافية لميدان المعركة يستطيع أن يحقق الكثير من خططـــه .

وقد أدرك القدماء أهمية التعرف على كل الظاهرات الطبيعية والبشرية لميدان المعركة . ويذكر أن قادة المسلمين قد أكدوا كثيراً على أهمية معرفة هذه الظاهرات من قبل المحاربين حتى لا يؤخذوا على حين غرة وحتى لا يكونوا أمام خصمين عندما تدور الدائرة . عدوهم ، وجهلهم بطبيعة أرض المعركة .

ان معرفة الجيش لأرض المعركة تعتبر من أهم الأمور التي تكفل لأفراده الوصول الى ما يصبون اليه . ومما يذكر أن خالد بن الوليد قال في ذلك عبارة لا يزال لها وزنها عند العسكريين وهي :

« قتلت أرض جاهلها وقتل أرضاً عالمها » (١) .

وميدان المعركة ليس الا مكاناً . وللمكان في عرف الجغرافيين شخصية لها ملامح طبيعية وبشرية . وليست شخصية هذا المكان مجرد مجموع هذه الخصائص الطبيعية والعوامل البشرية بل هي نتاج تفاعل مستمر بين الانسان والظروف الطبيعية الممثلة في الموقع والسطح والمظاهر الطبوغرافية ، والمناخ بعناصره . من حرارة ورطوبة ورياح وسحب ، والنباتات الطبيعية سواء أكانت أعشاباً أم غابات .

ولكل عنصر من عناصر البيئة الطبيعية أساليب الاستغلال العلمية الكفيلة بتسخيره في خدمة المعارك . وفيما يلي بعض النماذج الكفيلة بتوضيح ذلك :

١ – الموقـــع :

للموقع أهمية كبيرة تحددها عوامل متعددة منها استراتيجية الموقع ومدى تحكمه في الطرق ، أو الممرات البحرية وعلاقته بالدول المتحاربه . وعلى سبيل المثال أعلنت اسرائيل أنها ستحتفظ بشرم الشيخ ذات الأهمية البحرية لتأمين ملاحتها في البحر الأحمر . إلا أن حرب رمضان سنة ١٣٩٣هـ . أثبتت فشل هذا الادعاء وذلك من واقع أحكام سيطرة العرب على مضيق باب المندب الذي يعد منفذاً لها للاتصال بجنوب أفريقيا . وكثيراً ما يجلب الموقع الجغرافي المشاكل للدولة التي تتمتع بمواقع ذات أهمية حربية . كانت أهمية موقع مصر وقناة السويس سبباً في تنافس القوى الاستعمارية في السيطرة عليها منذ أقدم عصور التاريخ . ولهذا فان مصر قد قاست كثيراً بسبب تتابع حملات الغزاه والطامعين على أرضها بسبب موقعها الاستراتيجي الهام .

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ، تاريخ الطبري ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، الطبعة الثانية ، (القاهرة : دار المعارف بمصر)، ١٩٦٩م.

ولقد ساعدت الدول الاستعمارية على قيام دولة اسرائيل في قلب الأمة العربية لتكون حاجزاً يحول دون امتداد وتلاحم الدول العربية الآسيوية والافريقية . لقد أرادها المستعمرون حاجزاً يعوق اتصال الجناح العربي الآسيوي بالجناح العربي الافريقي .

ان بريطانيا التي كانت في يوم من الأيام سيدة البحار بما تملكه من أساطيل بحرية . قد حرصت على احكام السيطرة على الممرات البحرية الهامة حتى لا توصد في وجه سفن أساطيلها ، ومن هذه الممرات . باب المندب ، قناة السويس . مضيق جبل طارق . وممر ملقا ، وممر هرمز .

ولقد أدرك القائد الاسلامي معاوية بن أبي سفيان أهمية السيطرة على جزر البحر المتوسط القريبة من ساحل الشام وذلك في الصراع بين الدولة الاسلامية والبيزنطية إذ أن المدن الساحلية كانت دائماً هدفاً لغزوات أسطول البيزنطيين وهجماتهم المباغتة . فرأى معاوية أن الدفاع عن المدن الساحلية يتطلب الحماية البعيدة عن طريق احتلال الجزر القريبة من السواحل ووضع حاميات للرصد والانذار على أرضها . وعن طريق أسطول اسلامي يتجول باستمرار أمام السواحل ليتصدى لكل عدوان . والى جانب ذلك تكون هناك حماية قريبة تتركز في المدن الساحلية .

وقد بدأت محاولات معاوية لانشاء أسطول منذ سنة ١٧هـ ، ٦٣٧م ، حينما كتب الى الخليفة عمر بن الخطاب يقترح فيها انشاء أسطول ويستأذن في ركوب البحر . لكن عمر كتب الى واليه في مصر عمرو بن العاص يقول له صف لي البحر وراكبه . فأجابه عمرو : اني رأيت خلقاً كبيراً يركبه خلق صغير . ان ركن خرق القلوب وان تحرك أزاغ العقول . يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة . هم فيه كدود على عود . ان مال غرق وان نجا برق . (١) فلما قرأ الخليفة عمر بن الخطاب ذلك أقسم ألا يحمل فيه مسلماً أبداً وكتب بذلك الى معاوية لكن معاوية لم ييأس واستمرت محاولاته حتى نجح ووافق الخليفة عثمان بن عفان على انشاء أسطول للمسلمين .

٢ – مظاهر السطح :

ومن المعروف أن مظاهر السطح وطبوغرافية ميدان المعركة لها تأثير كبير على سير المعارك الحربية . فمثلاً نجد أن الجبال تمثل عقبات كبيرة في وجه الجيوش الغازية ولذا فقد استخدمت الجبال كحدود سياسية تفصل بين الدول مثل جبال الألب بين سويسرا وفرنسا وايطاليا . وجبال البرانس بين فرنسا وأسبانيا . وليس ببعيد عن ذاكرتنا قصص عبور قوات هانيبال من أسبانيا الى ايطاليا عبر جبال الألب . وكيف استخدم الغاليون تكتيك دحرجة الأحجار من المرتفعات على القوات المهاجمة . كما أن نقل المؤن والمعدات الثقيلة عبر الجبال تشكل أمراً بالغ الصعوبة . وقد أشرنا الى ذلك في حروب نابليون ، والحرب العالمية الأولى .

والمناطق الجبلية دائماً هي مناطق مناسبة للمباغتة ونصب الكمائن وذلك بسبب قلة امتداد الرؤية التي تحددها الحواف الجبلية ، وبسبب الطرق المحدودة التي تقيدها وتفرضها الممرات الجبلية مما يجعل حركة النقل والانتقال أمراً محفوفاً بالأخطار البالغة .

---

(١) مقتبسة من خطاب عمرو بن العاص الى عمر بن الخطاب .

وفي معركة جسر بونتياز – Pontioz » سنة ١٧٠٣م عمل السويسريون تحت قيادة مارتن – سترتزنغر – Martin Stertzinger » على دحرجة الأحجار الضخمة وجذوع الأشجار عن المنحدرات الجبلية على القوات البافارية تحت قيادة الجنرال نوفيون – Nouvion » وقد تكرر هذا التكتيك سنة ١٨٠٩ ضد البافاريين أيضاً عند ممر بريكسن – Brixen » وضد الساكسونيين – Saxons حلفاء الفرنسيين قرب ممر برنر – Brenner » في نفس السنة .

ويحاول بعض القواد استغلال عبور المناطق الجبلية لتحقيق سرعة في تكتيكاتهم العسكرية . فعل الجنرال الروسي سوفاروف – Sunarov » سنة ١٧٩٩م والذي كان يقود القوات الروسية شمال ايطاليا في عملياتها ضد الفرنسيين . صدرت الأوامر لذلك القائد أن ينضم تحت امرة أحد القواد الروس العاملين بالقرب من زيورخ بسويسرا . وبذلك قرر سوفاروف عبور جبال الألب في ١١ سبتمبر وكان يقود ٢٠ ألف جندي منهم ٤٠٠٠ قوقازي ، وقد وصل في السابع من أكتوبر الى هدفه ومعه ١٥ ألف جندي فقط في حالة يرثى لها وقد فقد كل خيوله ومدفعيته ، وكثيراً من المؤن (١) .

وليس ببعيد عنا ما تكبده العثمانيون عندما حاولوا فتح بلاد اليمن المعروفة بجبالها الوعرة . لقد فقد الأتراك الكثير من شبابهم على سفوح سروات اليمن لدرجة أنه قيل « ان اليمن هي مقبرة الأناضول » والجبال دائماً هي ملاجيء يحتمي بها ، فلقد احتمى العلويون بجبال الشام ومع مرور الزمن عرفت باسم جبال العلويين . ولقد احتمى الدروز بالجبال ، وكذلك جماعات الفور بالسودان حتى أصبحت المرتفعات التي احتموا بها تعرف باسم دارفور .

وكثيراً ما استغلت اسرائيل الجبال المطلة على خليج العقبة وخليج السويس عندما كانت طائراتها المغيرة على مصر تطير على ارتفاع منخفض فوق هذين الخليجين حتى لا تظهر على شاشات الرادار المصري خلال معارك سنة ١٩٦٧م ، ١٩٧٣م .

وقد تطورت وسائل النقل العسكرية الحديثة وأصبحت تستخدم الطائرات العمودية وبذلك ذللت صعوبات النقل عبر المناطق الجبلية . ولكن رغم هذا كله إلا أن الجبال ما زالت عقبة عسكرية تحد من مدى نيران المدفعية . وتحجب الرؤية وتعوق فاعلية موجات الرادار .

أما المناطق السهلية فانها تتيح سهولة في الحركة ويسراً . كما تسمح بمدى بعيد للمدفعية . وعموماً فان المناطق السهلية لا يستمر فيها القتال طويلاً .

٣ – المناخ :

يقصد بالمناخ حالة الجو بعناصره المختلفة من حرارة ورياح وسحب وأمطار . والحرارة مثلاً تتطلب ملابس خاصة فاذا كانت المعركة في منطقة حارة فان ذلك يفرض علينا ارتداء ملابس خفيفة واذا كان ميدان المعركة منطقة باردة فان ذلك يتطلب ملابس صوفية وهكذا . ومن المعروف أنه يوجد لدى الجيش الأمريكي بضعة عشر نوعاً من الملابس التي تناسب أنواع المناخات المختلفة في العالم .

) Louis Peltier and G. Etzel Pearcy, **Military Geography**, (Princeton, New Jersey: D. Van Nostrand Company, INC.), 1966, PP. 120-121.

ولقد وقع نابليون في خطأ كبير حينما هاجم موسكو في فصل الشتاء ، ولم يعط انخفاض درجة الحرارة أهمية كبيرة . وذلك في مطلع القرن التاسع عشر (شتاء سنة ١٨١٢م) حتى انه قيل ان جنرالات البرد هم الذين قهروا نابليون .

أما بالنسبة للرياح فلعل دورها كبير في حمل الغازات السامة . ولقد استغلت الشعوب القديمة الرياح كسلاح في مهاجمة الأعداء اذ أنها كانت تنتحين الأوقات التي تهب فيها الرياح الى مناطق الأعداء فيشعلون النار ويضيفون اليها بعض النباتات أو المواد التي تؤدي الى تصاعد غازات وأبخرة سامة . ومن المعروف أن اتجاه الرياح قد يستغل في الحروب الحديثة في كثير من المعارك التي تستخدم فيها الغازات السامة .

وقد يبدو دور السحب واستغلالها في المعارك ضئيلاً لأول وهلة . الا أن تتبع المعارك المختلفة يوضح لنا أن السحب قد تكون أقنعة وأغطية تحمي المواقع من الغارات الجوية . وقد لعبت السحب دوراً حاسماً في تحديد مكان القاء أول قنبلة ذرية في العالم . ومما يذكر أن مؤتمراً خطيراً عقد في ابريل سنة ١٩٤٥ في البنتاغون (وزارة الدفاع الأمريكية) ضم مجموعة من الخبراء عكفت على دراسة خرائط الطقس لليابان . (١) وأخذت المجموعة تصغي الى رجل عجوز ذى شعر أبيض من النرويج وكان هذا النرويجي خبيراً في الكتل الهوائية والسحب ، لقد اجتمع هؤلاء الأشخاص ليدرسوا متى وأين سوف تلقى أول قنبلة ذرية ، وقرر المجتمعون بعد الدراسة المستفيضة اختيار ثلاثة أهداف هي :

هيروشيما . Hiroshima

كـــوكورا . Kokura

نجازاكي . Nagasaki

أما موضوع ساعة الصفر فكان صعباً لأنه لم يكن هناك فائض من القنابل لضياعها ، وبعد دراسة مكثفة للاحصاءات المناخية حدد خبير المناخ النرويجي الميعاد وأعطى قراره . . . . هناك ثلاثة أيام تبدأ من ٦ أغسطس حين يكون الجو فوق اليابان مناسباً يتيح الرؤية لاسقاط القنبلة .

وكانت هناك ثلاث طائرات تواصل الطيران باستمرار فوق الأهداف السابقة وتعطي تقارير وافية عن الظروف الجوية . وأوضحت تلك التقارير بأن ظروف هيروشيما مناسبة في صباح السادس من أغسطس سنة ١٩٤٥م . فألقيت القنبلة الذرية الأولى وتبعتها الثانية بعد ثلاثة أيام على نجازاكي .

وبالنسبة للأمطار فلقد كانت سبباً في هزيمة نابليون سنة ١٨١٥م في معركة واترلو . . . حيث أحالت ميدان المعركة الى أوحال استعصى معها على نابليون تحريك مدافعه بسرعة . . . . وهكذا هزم المناخ نابليون مرتين . . !

ومن تتبع المعارك الحديثة نجد أن معارك أمريكا في فيتنام كانت موسمية ، بمعنى أن حرب فيتنام موسمية . موسم الأمطار والسحب (الصيف) لأن فيتنام ذات مناخ موسمي وهو الفصل الذي خصصه الفيتناميون لشن هجماتهم وذلك لعجز الطيران الأمريكي في هذا الموسم عن أداء دوره بنجاح تام بسبب

(1) Captain David C. Holmes, Understanding the Weather, (London and Melbourne: The Oak Press), 1965.

كثرة السحب الغيوم ، كما أن الدبابات والسيارات تجد صعوبات كبيرة بسبب الأوحال التي تنجم عن غزارة الأمطار فوق تربات رسوبية طينية .

واذا كان الفيتناميون قد تخصصوا في هجمات « الصيف » فان القوات الأمريكية كانت تشن هجماتها الساحقة في فصل الشتاء وهو فصل الجفاف وندرة السحب . الأمر الذي مكنها من استغلال أسلحتها بنجاح نسبي .

ويرتبط تحديد وقت المعارك الى حد كبير بمعرفة الخصائص المناخية لميادين المعارك الحربية ، وعلى سبيل المثال هاجمت طائرات اسرائيل – مطارات مصر في الخامس من يونيو سنة ١٩٦٧م في تمام الساعة التاسعة صباحاً من جهة الشرق وذلك حتى لا يتسنى وضوح رؤية الطائرات مع شروق الشمس .

ويمكن أن تستغل النباتات الطبيعية في الحروب . وفق طبيعتها ، فمناطق الغابات تمثل دائماً ملاجىء يلجأ اليها الوطنيون اذا ما هوجموا كما حدث في فيتنام ، وفي كينيا . بينما تمثل مناطق الأعشاب مناطق مكشوفة .

ومما يذكر أن أهم ماساعد الجيش الاسرائيلي على احتلال صحراء سيناء في حربي سنة ١٩٥٦م ، ١٩٦٧م هو افتقادها الى الغطاء النباتي الطبيعي . لقد كان بالامكان تشجير مساحات شاسعة من تلك الصحراء بأشجار الأثل والخروع نظراً لأن منسوب الأمطار السنوي يكفي لنمو هذين النوعين من الأشجار . ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث بشكل ملموس في الماضي وبقيت سيناء مكشوفة . وبالطبع لو كانت هناك أشجار كافية هناك فانه لكان بالامكان التجاء الجنود المصريين اليها حتى يصعب اكتشافهم من الطائرات ولكانت تلك الأشجار خير ساتر لاقتناصهم . بالاضافة الى ذلك فان ظلال الأشجار لها قيمتها للمحاربين خاصة خلال فصل الصيف حينما تشتد حرارة الشمس .

وتحاول الجيوش التنكر وفق ما يسود ميدان المعركة من ظروف مختلفة ، فاذا كانت الأشجار هي المصدر السائد عمد الجنود الى وضع بعض أغصان الأشجار على سياراتهم للتمويه . وان كانت الأرض صحراوية خالية من النباتات لجأت القوات العسكرية الى طلاء مواكبها ومعداتها بلون الرمال السائد وذلك للتمويه أيضاً .

ومن يتتبع تاريخ الفتوح الاسلامية يجد أن المسلمين قد نجحوا في فتح البلاد ذات الظروف المناخية والنباتية المشابهة لظروف بلاد العرب . وعلى ذلك كان محور انتشار الاسلام من الشرق الى الغرب أطول بكثير من محور امتداد الاسلام ما بين الشمال والجنوب . فلقد انتشر الاسلام من حدود الصين شرقا الى ساحل المحيط الأطلسي غرباً . وتزيد هذه المسافة على خمسة عشر ألف كيلومتر بينما لم يتجاوز انتشار الاسلام ما بين الشمال والجنوب سبعة آلاف كيلومتر . ولقد صدق علي بن أبي طالب في قوله « لا يفلح العربي الا حيث يفلح الجمل » ولقد تحققت انتصارات المسلمين في كل النطاقات التي لاءمت الجمل .

وظلت الحروب الصحراوية تعتمد على الخيول والابل كوسائل نقل حتى سنة ١٩٣٥م . على الرغم من أن بداية استخدام السيارات كوسائل للنقل بدأ محاولاته منذ سنة ١٩٣٠م .

خاتمـــة :

هكذا يتضح لنا أن الظروف والعوامل الجغرافية التي تسود ميادين المعارك تمثل امكانيات ترجح كفة من يحسن استغلالها في الحروب . كما أن نفسية الأعداء وعاداتهم وتقاليدهم ومقدراتهم تعتبر أموراً هامة تخدم التخطيط للمعركة . ومظاهر السطح من تلال أو جبال ، وسهول وهضاب تحدد وسائل الانتقال وأسلحة الهجوم الفعالة . بالاضافة الى ذلك فان المناخ يشارك في تحديد فصول الحروب وأوقات الهجوم . لقد أصبحت دراسة ظروف البيئة الجغرافية واستغلالها في المعارك الحربية فرعاً جديداً من الجغرافية التطبيقية هي الجغرافيا العسكرية .

ولم يعد استغلال ظروف البيئة مجرد اجتهاد شخصي يختلف من شخص الى آخر . . . بل أصبح علماً له أصوله التي تستند الى دراسات عملية ميدانية خاضتها الجيوش والشعوب ودفعت أثمانها غالية من أرواح أبنائها ومن مواردها المختلفة .

وباختصار يمكن القول بأن الجغرافيا العسكرية هي فن استغلال الظروف البيئية في خدمة المعارك الحـــربية .

الخلاصة

تعتبر الجغرافيا من أقدم العلوم التي عرفها الأنسان وطورها . وقد نمت الجغرافيا كسائر العلوم الأخرى وأصبحت علماً تطبيقياً يسهم في شتى مجالات الحياة النظرية منها والعلمية .

ومن العلوم التي ساهمت الجغرافيا في تطويرها ، العلوم العسكرية ، حيث أضيف فرع جديد هو الجغرافيا العسكرية التي تيسر التعرف على البيئة الجغرافية لميادين المعارك بخصائصها الطبيعية والبشرية مما يتيح استغلاله لتحقيق النصر .

وتهتم الجغرافيا العسكرية في دراستها للعوامل البشرية بعدد السكان ومناطق ازدحامهم ومستواهم الثقافي و يسودهم من عادات وتقاليد ، وأهم مظاهر نشاطهم الاقتصادي حتى تستطيع أن تقيم هذه العوامل البشرية وتخطط المعارك على أساس هذه الدراسة .

أما بالنسبة للعوامل الطبيعية فتركز الجغرافيا العسكرية على الخصائص الجغرافية المتمثلة في الموقع واستراتيجيته ومظاهر السطح وخصائصه الطبوغرافية ، وعلى ضوء دراسة مظاهر السطح يتقرر نوع السلاح الأنسب ، ووسائل المواصلات . كما تدرس الجغرافيا العسكرية كذالك خصائص المناخ لمواقع المعارك الحربية ، اذ ان المناخ يؤثر في تحديد مواعيد المعارك ، ويتقرر على ضوء المناخ كذالك نوع ملابس الجنود ونوعية وكمية أغذيتهم .

وخلاصة القول أن كل ما يوجد في ميدان المعارك هو أحد عناصر البيئة الجغرافية ، وكلما زاد فهم هذه العناصر وخصائصها وروعيت في تخطيط المعارك كلما كان ذلك أدعى لتنفيذ الخطط الحربية بنجاح .

المـــراجـــع

أولا : أهم المراجع العربية

(١) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، تاريخ الطبرى ،
تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، الطبعه الثانيه ، (القاهرة : دار المعارف بمصر) ، ١٩٦٩م

(٢) بسام العسلي ، فن الحروب في **عهود الخلفاء الراشدين والأمويين – عمليات الجبهات الشمالية والشرقية والبحرية** ، (بيروت : دار الفكر) ١٣٩٤هـ – ١٩٧٤م .

(٣) ادارة الشئون الدينية بوزارة الدفاع والطيران – قسم التوعية الأسلامية **الجندي المسلم** ، (الرياض : العدد الخامس عشر) سنة ١٣٩٧هـ – ١٩٧٧م .

(٤) حسن عبد القادر صالح ، **المظهر الجغرافي لقوة الدولة** ، **عمان** : مكتب عزمي غيث)، ١٩٧٦ م .

(٥) محمد جلال كشك ، **ودخلت الخيل الأزهر** ، (بيروت : الدار العلمية) ١٩٧٢ م .
اللواء محمد كمال عبد الحميد ، **الشرق الأوسط في الميزان الأستراتيجي** ، (القاهرة : مكتبة الانجلو المصرية) ، ١٩٧٢م.

(٦) اللواء الركن محمد شيت خطاب ، **دروس في الكتمان من الرسول القائد** ، (بيروت : مؤسسة الرسالة)، ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م.

ثانياً : المراجع الاجنبيـــة

1. Bates, Marston, **The Prevalence of People, ,** (New York : Charles Scribner's Sons), 1962.

2. Crabb Jr., Cecil V., **The Elephents and the Grass,** (New York : Frederick A. Praeger, Publishers), 1967.

3. Haperin, Morton H., **Defence Strategies for the Seveuties,** (Boston : Little, Brown and Company), 1971.

4. Holmes, David C,. **Understanding the Weather,** (London : and Melbourne : The Oak Press), 1965.

5. Kissinger, Henry, **The Troubled Partner Ship,** (Garden City, City, New York: Anchor Books, Doubleday and Company, INC.), 1966.

6. Peltier, Louis C., and Pearcy, G. Etzel, **Military Geography,** (Princeton, New Jersey : D. Van Nostrand Company, INC.), 1966.

7. The world Almanac, (New York : Newspaper Enterprise Association, Inc.), 1977.

8. Waltz Kenneth N. **Man, the State and War,** (New York and London : Colombia University Press) 1970.